

## التطور السوسيو اقتصادي في بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط قراءة في الأسباب والعوامل

**The socio-economic development of Western Soudan during the middle age: in-  
depth look to the factors and causes.**

رضوان هوارى أستاذ مساعد-أ. بجامعة صالح بوبنيدر- قسنطينة-3

الهاتف: 0664426227

البريد الإلكتروني : [redhouari26@gmail.com](mailto:redhouari26@gmail.com)

### الملخص :

إن دراسة تاريخ بلاد السودان الغربي في العصر الوسيط يقودنا إلى الحديث عن مدى التطور الحضاري الذي عرفته ابتداء من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي ، فهذا التطور لم يكن مقتصرًا فقط على التجارة ، وإنما كان على أكثر من صعيد وهذا ما جعل المنطقة تنتقل من العزلة الطبيعية إلى العالمية . إن النقلة النوعية التي عرفتها في بلاد السودان الغربي كانت ورائها عدة أسباب وعوامل بين الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وهذا ما انعكس على الجانب الثقافي .

**الكلمات المفتاحية :** الهجرة ، العنصر البشري ، التواصل ، التجارة ، التحول .

### **Abstract :**

The study of the Western Soudan history lead is to talk about the noticeable development in civilisation since the eleventh century, the development was not only on trade scope but it was also remarked in all the domains. This trend on the western Soudan region resulted from various social, economic and political factors ,then the development reached the cultural side as well.

**Key words:** Immigration, The human element, communication, Trade, Transformation.

## مقدمة :

دخلت بلاد السودان الغربي العديد من التحولات بداية من القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد ، وهذا انطلاقا من عدة عوامل سنحاول أن نسوقها ونبين مدى تأثيرها على تاريخ بلاد السودان الغربي بشكل خاص وعلى تاريخ إفريقيا ما وراء الصحراء بشكل عام ، والذي سيكون له دور بارز في رسم معالم الفترة الحديثة، مما سيجعل القارة برمتها تتغير جذريا نتيجة ما عرفته في هذه الحقبة التاريخية والذي هو في الحقيقة جزء من التحولات العالمية ، التي أفرزها الانقلاب الصناعي العالمي ، والذي جعل القارة تعاني لفترات طويلة و إلى غاية القرن العشرين . كل ذلك جعلنا نسلط الضوء في هذه الدراسة على جملة العوامل المتحركة في المتغيرات السوسيو اقتصادية لبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط لأنها هي المسؤولة على رسم مرحلة جديدة لهذه المنطقة . وهي التي ستحول المنطقة إلى كيان قائم بذاته يحاول الابتعاد عن تجاذب الكيانات السياسية الواقعة في شمال الصحراء الإفريقية.

## إشكالية الدراسة :

تعددت الدراسات التي أشارت إلى البعد الديني ودوره في بلاد السودان الغربي وخاصة مع دخول الإسلام إلى هذه البلاد ، وكيف أثر في تغيير البنية الاجتماعية والاقتصادية لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء . ولكن هذا التغيير لم يتحكم فيه البعد الديني فقط ومن هذا المنطلق بلورنا إشكاليتنا كالتالي : ما هي العوامل التي ساهمت في تحول بلاد السودان الغربي؟ وما هو تأثيرها على الهيكل الاجتماعي والاقتصادي لهذه المنطقة في العصر الوسيط؟ ومن خلال ذلك نطرح بعض الأسئلة الإشكالية التي تحدد بدقة محور الإشكالية وهي على النحو التالي :

- ما هو تأثير العوامل الاجتماعية ودورها في هذا التطور ؟

- هل الإنسان المحلي كان قادرا على إحداث هذه المتغيرات لوحده ؟ أم تفاعله مع باقي المناطق هو الذي أدى إلى هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية ؟

- كيف ساهمت المتغيرات الاقتصادية والسياسية في هذا التطور الحاصل في بلاد السودان الغربي ؟

هل كان هذا التطور ايجابي أم سلبي على المنطقة ؟

## 1- البنية الاجتماعية وتأثيراتها :

### أ – العنصر البشري :

لقد كان للهجرات البشرية التي عرفتها بلاد السودان الغربي لمختلف الأسباب ( الفرار من القتل ،أو التجارة ،أو الدعوة ) دور في تحول النسق الاجتماعي لهذه البلاد لأنها أثرت هذه البلاد في مختلف المجالات وعلى جميع الأصعدة (ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي، 2009 ، ص372) ، وكان لعامل الاستقرار وتقبل أهل البلاد لمختلف العناصر الوافدة دور في ظهور أجيال جديدة نقلت البلاد إلى مرحلة حضارية جديدة (خيرى عيسى محمود، دت،ص39). وهذا ما أدى التأثير والتأثر بين أهل البلاد والعناصر الوافدة إلى بلاد السودان الغربي (المقريزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، دت ، ص196).

وقد وصلت إلى بلاد السودان الغربي جماعات من قيس عيلان (ابن حزم،أبو مُحَمَّدٍ عَلِيٌّ بَنُ أَحْمَدَ بن سَعِيدٍ، دت،ص243). وقد نقل هؤلاء العرب العديد منصور الحضارة العربية إلى تلك الأصقاع و أخذوا عنهم الكثير من طبائع معاشهم كإنشاء المساكن وما تعلق بالعمران بشكل عام . ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما ذكرته المصادر براعة المهندس والشاعر أبو إسحاق الساحلي و مدى التحول الذي أحدثه في هندسة عمران هذه البلاد إبداع طريقة جديدة تتناسب مع طبيعة هذه البلاد الحارة و مازالت إلى يومنا هذا بعض معالم عمران الساحلي في هذه البلاد بداية من 1323/ 723 هـ م حيث عمل على بناء العديد من القصور والمساجد انطلاقا من مدينة جني ، فأتقنها وبرع في صنعها وهو امن أدخل البناء بالطوب المحروق الذي لم يكن معروفا في بلاد السودان الغربي ومما قاله عنه ابن خلدون " أراد سلطان مالي أن يتخذ بيتا في قاعدة سلطانه مدينة جني محكم البناء ،مجللا ،لغرابتة بأرضهم ،فأطرفه أبو إسحاق ببناء قبة مربعة الشكل ،استقرغ فيها إجادته .وكان صناع اليبدين ،وأضفى عليه من الكلس ووالى عليها من الأصباغ المشبعة ،فجاءت من أتقن المباني ،ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ،وصله باثني عشر ألفا من مئاقيل دنانير التبر مبنوثة عليها ،إلى ما كان من الأثرة والميل إليه ،والصلات السنية " وذكر ابن بطوطة أن سلطان مالي أجزل بالعطاء على الساحلي جزاء تفننه في البناء (ابن خلدون عبد الرحمن، 1976،ص199). وقد وصلت الهجرات الإسلامية إلى هذه البلاد و خاصة من بلاد المغرب فاندمجوا مع السكان المحليين وتزوجوا معهم ،وأصبحت مدن السودان الغربي عامرة بهم وبعاداتهم وتقاليدهم بصفة خاصة والعرب بصفة عامة (جمال زكرياء قاسم، 1975 ، ص155). وقد اهتم الرحالة الغربيون منذ بداية اكتشافهم للصحراء و إفريقيا الغربية بتسجيل ظاهرة الوجود العربي والعنصر المغاربي في هذه فأوردوا ذلك في كتاباتهم لهذه البلاد في القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، التاسع والعاشر للهجرة.

ومما يجدر ذكره تلك الهجرة المعاكسة التي كانت من بلاد السودان الغربي نحو بلاد المشرق الإسلامي ومصر على الخصوص حيث خصص رواق خاص للسودان في الجامع الأزهر بالإضافة إلى وجود حي خاص بأهالي بلاد التكرور في مدينة القاهرة عرف بحي التكروري (ابن ثغري بردي، دت، ص289). ومن خلال ذلك نلاحظ مدى التواصل و التلاقح بين العرب المسلمين في أقطار العالم الإسلامي من جهة وبين أهل السودان الغربي . و كيف كانت هذه العوامل أحد الأسباب المهمة لإحداث التغيير في هذه البلاد على المستوى الاجتماعي و الاقتصادي .

#### ب- المصاهرة :

لقد جاء التأكيد على عدم التفريق بين الأمم والشعوب امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات، الآية 13). فلم يكن لون بشرة الزوج سببا في تعصب باقي المسلمين عليه فتقارب المسلمون وتزوجوا فيما بينهم وهذا ما لم يقدم عليه النصارى أو اليهود مما جعل أهل السودان الغربي يقبلون على الدين الإسلامي ، وأصبح لتلك المصاهرة دور مهم في إعادة بناء المجتمع السوداني على أسس جديدة توجهها تعاليم الإسلام. فتصاهر العديد من المهاجرين من سكان شمال الصحراء فذابت ملامحهم واختفت فوارق اللون والجنس ، وقد أشارت المصادر العربية عن تزويج ملك سنغاي بناته لتاجرين وفدا إلى هذه البلاد (حسن الوزان، 1983، ص111). وقد تزوج الكثير من تجار البربر والعرب من نساء سودانيات ، وأصبح من الصعب التعرف على الأصول إلا من خلال الذين حافظوا عليها جيلا بعد جيل . وقد ذكر ابن الخطيب أن أبناء الشاعر والمهندس الأندلسي إبراهيم الساحلي من إمانه الإفريقيات كانوا شديدي السواد (ابن الخطيب لسان الدين، 1974، ص348). كما ذكر المقري في هذا الشأن أن آل المقري الذين اشتهروا بتجارتهم نحو بلاد السودان ، أنهم قد تزوجوا من السودانيات بقوله: " فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط و الديار ، و تزوجوا النساء، و استولدوا الإمام " (المقري أحمد، 1986، ج5، ص608). أما ابن خلدون فقد ذكر مثالا آخر عن المصاهرة و الجيل المولد بالحديث عن أبو مخلد بن كيداد حيث كان والده تاجرا من منطقة الجريد وتزوج من جارية سوداء من تادمكة فأصبح يعرف بالحبشي للون بشرته (ابن خلدون عبد الرحمن، 1976، ص199).

ظهر نتيجة المصاهرة جيل جديد من المولدين ينتسبون إلى العرب لأن أجدادهم العرب تزوجوا من سودانيات ومنهم حكام مالي الذين ادعوا نسبهم إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان نفس الشأن للعديد من الأسر السودانية التي ادعت النسب الشريف وخاصة بعد قدوم العديد من الأسر الشريفة مع السلطان منسا موسى بعد حجه سنة 1324/724م (كعت محمود، 1913، ص31).

كما أدت الهجرات العربية من الشمال الإفريقي وعلى الخصوص من المغرب واستقرارهم ببلاد السودان الغربي ، إلى الانصهار في المجتمع السوداني مما أدى إلى شغلهم للعديد من المناصب الكبيرة في بلاط ملوك هذه البلاد كالقضاء و الإفتاء وإمامة المساجد والتدريس بها وكذا التجارة ، حيث برزت عدة أسر نذكر منها : بيت الفلالي ، و الدكالي ، والسجلماسي ، و التازي ، و التوتي ، الجزولي ، فكانت إيدانا لبروز مجتمع سوداني جديد بملامح وتقاليده عربية بربرية إسلامية.

لقد كان وصول التجار والفقهاء إلى هذه المنطقة سببا في احتكاك مع السكان الأصليين ومع الاستقرار والمصاهرة تقبل السكان عادات الوافدين وأصبحت جزءا من حياتهم المعيشية (Trimingham Spencer, 1976 , p107).

لقد نتج عن هذا التصاهر انتشار اللغة العربية فأصبحت بذلك أحد أهم الوسائل لحفظ تراث هذه البلاد ونشر الدين الإسلامي في مجاهل القارة الإفريقية وكانت سلوكياتهم دافعا لاعتناق شعوب هذه البلاد للدين الإسلامي ، وازداد التزام المجتمع الأخلاقي وساد التسامح وإقامة الحدود بين الناس والعمل بتعاليم الدين الإسلامي ، مما انعكس على المستوى الحضاري للسودان الغربي في هذه الحقبة الزمنية ، والتي كانت من أزهى فترات هذه البلاد بعلمائها وأعلامها في شتى العلوم والفنون (قداح نعيم، د.ت، ص9)، ولعل القرنين الخامس والسادس الهجريين يمثلان قمة الازدهار العلمي والثقافي في هذه البلاد ، وهذا ما يفسر ثراء المكتبات بالمؤلفات سواء المحلية أو المستقدمة من المشرق والمغرب الإسلاميين (عطاءالله الجمل شوقي . عبد الرزاق ابراهيم عبد الله، 1996 ، ص118).

## 2- الرحلات الحجازية ( الحج ):

لا يوجد شك حول أهمية الدور الذي لعبته قوافل الحج والتجارة في ازدهار بلاد السودان الغربي وهذا ما سمح بتطور حياة البدو من نمط البداوة المرتحلة دوما إلى الاستقرار الدائم والاستعاضة عن وجود سلطة مركزية تحفظ الأمن لطريق الحج ، وقد مكنت قوافل الحج من صهر الزوج والبربر في الحضارة الإسلامية وهو ما تشهد عليه العديد من المخطوطات الموجودة في بلاد السودان الغربي ، وقد لعبت هذه القوافل دورا مهما في إعمار حواضر السودان الغربي ، وجعلها منارات للعلم والعلماء وذلك بتوظيف الفائض التجاري ، لهذا الفرض المقدس عند المسلمين، وأصبحت بذلك القوافل مرتبطة ارتباط وثيق بركب الحج ، حيث أصبح أحد الوسائل المهمة للاتصال بالمشرق العربي خاصة من خلال حمل المسائل الفقهية ، والنوازل ، وكل ما يتعلق بالحياة في هذه البلاد .

وكثيرا ما ارتبط اسم مؤسس الدولة بهذه الشعيرة بحيث تضي عليه مكانة اجتماعية وسياسية وفي نفس الوقت الدينية ، فليس ثمة شك في ارتباط التأسيس الثاني لهذه الحواضر بالحج .حيث في الغالب ما يتم التأسيس عند عودة الحاج ، وأغلب المدن الكبرى التي أسست أصبحت محطات لقوافل التجارة والحج معا وبالمقابل تراجعت المدن القديمة بين المغرب وبلاد السودان الغربي ، وقد شكلت ولاتة أحد هذه النماذج لتوسطها بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي حيث ازدادت شهرتها لكونها مركز جذب للتجار العرب والبربر والزنوج من جهة ومن جهة أخرى كونها أصبحت من المحطات الرئيسية لقوافل الحج ، وخصوصا بعد أن ابتدأ منها منسى موسى و إسكيا محمد رحلتيهما إلى الحج ، وهذا ما جعلها تكون ملاذا آمنا للعلماء الفارين من بطش وتعسف حكام تمبكتو ، كما أن مواكب الحج التكرورية لعبت دورا كبيرا في انتعاش التجارة مع مصر ،حتى أن جاليات كبيرة من أهل التكرور استقرت في مصر وسكن منها في القرافة ثلاثة آلاف شخص (التكروري بن عرفة، 1314 هـ، ص118). وقد لعبت رحلة الحج دروا كبيرا في تعزيز وتوطيد العلاقات والصلات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وحتى الثقافية بين مصر وشعوب السودان الغربي ، كانت رحلة منسا موسى للحج من أهم الرحلات التي قدمت من بلاد السودان الغربي لما كان لها من انعكاسات على مختلف الجوانب (فوزية يونس فتاح، 1994، ص88). وعلى رأسها الاجتماعي والثقافي والديني وحتى السياسي .

لقد اكتسب أهل السودان الغربي من خلال رحلاتهم ومشاهداتهم للعديد من حواضر العالم الإسلامي آنذاك الكثير من عادات وتقاليد هذه المدن وفي بعض الأحيان فاقوا من سبقهم في الإسلام في مدى التزامهم بحدود الشرع الإسلامي من أوامر ونواه .وقد سجل لنا العمري حادثة وقعت للسلطان منسى موسى في رحلته الشهيرة للحج (ابن كثيرٍ إسماعيل بن عمر، 1977، ص112). وعند لقائه للسلطان المملوكي في مصر في كونه رفض تقبيل الأرض بين يدي السلطان والسجود له، وأجابه بأن السجود لا يكون إلا لله وحده (العمري ابن فضل الله شهاب الدين، 1988، ص72).ومن انعكاسات تلك الرحلة على السودان الغربي هي مسارعة منسا موسى لإقامة المساجد والمدارس لتحفيظ القرآن والحرص على جلب العلماء والفقهاء و إكثار العطاء لهم ، حتى اشتهر بأنه يحب البيضان ويحسن إليهم ، كما قال ذلك ابن بطوطة في معرض حديثه عن هذا السلطان وتمبوكتو وولاتة (السعدي عبد الرحمن، 1898، ص21). ولقد ظل الحج من المؤثرات الهامة لنقل العادات والتقاليد من مناطق العالم الإسلامي التي تعبرها قوافل الحجيج إلى بلاد السودان الغربي .

لقد مكنت قوافل الحج من تأسيس علاقات متنوعة وعلى جميع الأصعدة بين مصر ومكة وباقي بلاد السودان الغربي ، أما مصر فلم تكن مجرد محطة عبور بل تعدت ذلك ، لأنه كان يتوجب على موكب الحج السوداني البقاء فيها والانتظار حتى موعد رحيل الموكب المصري وخلال هذه الفترة كان يتجه الكثير من أهل السودان إلى تلقي العلوم ومختلف الآداب ،

بحيث كانت مواكب الحجيج تتزايد حتى وصلت إلى خمسة آلاف حاج أو يزيد عن ذلك حسب ما ذكرته المصادر (ابن الوردي زين الدين عمر بن المظفر، 1970، ص392) والذي يفيدنا من هذا التعداد هو أن نعي حجم الوافدين على بلاد المشرق من أجل القيام بهذه الشعيرة والفرص ومدى تعلقهم بالإسلام وتأدية أركانه كما كانت أحد أهم الوسائل التي أثرت في المجتمع السوداني وفي نمط حياته السياسية و الاقتصادية والثقافية .

## 2- العوامل السياسية :

### 2-1- دور السفارات ( النشاط الدبلوماسي ) :

لعب القرب الجغرافي والعلاقات التجارية القديمة بين بلاد السودان الغربي ، وباقي دول بلاد المغرب الإسلامي خاصة في التأثير على الواقع الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي على دول ضفتي الصحراء ، وحتى وإن كان طابع العلاقات طغى عليه الطابع التجاري ، إلا أننا نجد من خلال ما ذكرته بعض المصادر للمراسلات التي كانت تتم بين حكام دول بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي . فقد كانت هذه المراسلات أو السفارات أحد العوامل المؤثرة في بلاد السودان الغربي، فنجد أن هذه المراسلات والسفارات قد لعبت دورا مهما في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي، وكانت أهم السفارات التي حدثت بين بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب الإسلامي هي تلك التي تمت بين منسا موسى سنة 737هـ/1337 م والسلطان المريني بالمغرب أبي الحسن المريني ( الزركلي خير الدين، 1969، ص47)، ومن نتائج هذه السفارة هو توطيد العلاقات بين الطرفين، حيث أرسل منسا موسى العديد من البعثات إلى مدينة فاس على نفقة الدولة وكل الطلبة الذين يتعلمون في المغرب يحضون بمناصب مهمة في حواضر بلاد السودان الغربي، كتمبوكتو، وجني، وغاو، ونياني (زكي عبدالرحمن، 1961، ص97)، فمنهم الإمام والقاضي والمعلم، كما أخذت مراحل التعليم في دولة مالي الإسلامية تتشابه مع ما كان معروفا في الدولة المرينية .

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان الغربي، عددا كبيرا من العلماء المغاربة الذين انتشروا في ربوع هذه البلاد (ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي، الصفحات 377-380)، فظهر من خلال هذا التواجد الكبير للعلماء والفقهاء وغيرهم من بلاد المغرب أثر جلي في تحول جوانب كبيرة لبلاد السودان الغربي .

لقد اكتسب العلماء مكانة كبيرة في بلاد السودان الغربي ، حيث كان أثرهم بارزا في الحياة السودانية وهذا ما خول لهم الحصول على مناصب عليا في دول السودان الغربي ، ومن ثم كان يستحيل تسيير الإدارة دون تأييدهم (مادوهوبانيكار.ك، 1995، ص424). وقد تتالت السفارات بين المنطقتين وخاصة في ظل الحكم المالي وحكام دولة مالي ،

حيث ذكر ابن خلدون أن السلطان المريني أبي الحسن قد أوفد سفارته بعد سنة 738-742 هـ/ 1337-1341 م وهذا بعد حكم منسا موسى وتسلم منسا سليمان للحكم في مالي وفي عهد منسا سليمان أرسلت سفارة جديدة سنة 748 هـ/ 1348 م إلى بلاد المغرب لتهنئة السلطان المريني أبي الحسن ولكن ها تعرضت للنهب والسلب وفي سنة 762 هـ/ 1360 عقلت سفارة من بلاد مالي في مدينة ولاته وبقيت هناك حتى سنة 776 هـ/ 1374 م ، وقد حظيت باهتمام السلطان أبي سالم المريني (ابن الأحمر اسماعيل بن يوسف ، 1972، ص51-56) وجموع المرافقين له وخاصة لما شاهدوا الزرافة ، وقد وصف ابن خلدون وقوفهم عند الاستقبال بالزحام (ابن خلدون عبد الرحمن، 1976، ص199).

وفي ختام هذه السفارات رحلة ابن بطوطة إلى دولة مالي سنة 753 هـ/ 1352 م بأمر من السلطان أبي عنان المريني (ابن الأحمر اسماعيل بن يوسف ، صفحة 51)، والتي قدمت لنا الكثير من المعلومات عن منطقة السودان الغربي ، ونقل لنا ابن بطوطة طريقة الاحتفال بعيد الفطر والضحي إحياء ليلة القدر من شهر رمضان الفضيل ، حيث تدخل المدينة في جو إيماني وتلاوة القرآن الكريم وقراءة كتب المالكية وكتب الحديث وهذه الاحتفالات كانت معروفة في بلاد المغرب عامة ، كما ذكر لنا مدى تعلق الناس بالدين وبقراءة القرآن وكل ذلك كان أحد أهم مظاهر التحول في المجتمع السوداني الذي رسخت فيه مبادئ وتعاليم الإسلام ، وكذا عادات وتقاليد المجتمعات الإسلامية المجاورة له ، بحكم التلاقح الذي حدث بين ضفتي الصحراء الكبرى وحتى مع بلاد المشرق والحجاز . وفي نفس الصدد كانت هناك سفارات بين سلاطين كانم والدولة الحفصية حيث وصف لنا ابن خلدون السفارة التي أرسلها السلطان دونمة ديبالمي حاكم دولة كانم (1259-1221 م) (بدوي عبده، 1970، ص172)، في سنة 655 هـ/ 1257 م إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر (الذهبي محمد بن أحمد، 1987 ، ص136).

وكانت هذه السفارة محملة بهدايا ثمينة جدا كما ذكرها ابن خلدون (ابن خلدون عبد الرحمن، صفحة 199) ، وقد لعبت دورا هاما في نقل مؤثرات الدين الإسلامي ومد وتوغل العرب المسلمين إلى أعماق القارة كما أرسل الماي عبد الله بن كادي حاكم دولة كانم مابين (1342-1321 م) (عارف محمد شوكت، 1996، ص77) إلى السلطان الحفصي المتوكل 728 هـ/ 1327 م وفدا مكونا من العديد من المقربين منه قصد توطيد العلاقات بينهما. (الزركلي خير الدين، 1969، ص47)

من خلال المراسلات التي كانت بين حكام الدولتين ، ذكر القلقشندي رسالة للسلطان عثمان بن زينب (كادي) حكم مابين 1279-1300 م/ 676-700 هـ (المقريري أحمد بن علي ، 1958، ص899) بعثها للسلطان المملوكي برقوق (الزركلي خير الدين، صفحة 18)، سنة 794 هـ/ 1391 م ،

عبرت هذه الرسالة عن مدى الاحترام والمحبة التي يكنها هذا السلطان لمصر من خلال الأوصاف التي وصفها بها في الرسالة (القلقشندي أحمد بن علي، دبت، صفحة 294) .

من خلال هذه المراسلات والسفارات توطدت العلاقات بين ضفتي الصحراء ، بالرغم من أنها كانت قليلة إلا أن الدور الذي لعبته كان كبير في معانيه وقيمه وتأثيراته على المجتمع السوداني ، من خلال ما اكتسبته الوفود التي زارت البلاد الإسلامية من عادات وخبرات ،دفعت بالعجلة الحضارية في بلاد السودان الغربي ، وجعلت منها قطبا حضاريا إسلاميا يضاهاى باقي الأقطار الإسلامية .

## 2-2- دور الملوك :

عمل حكام الممالك الإسلامية بالسودان الغربي بتشجيع العلماء للتوافد على هذه البلاد من المشرق و المغرب الإسلاميين ، وذلك بالكثرة العطايا والهدايا وحتى الاقطاعات قصد تشجيعهم على الإقامة في هذه البلاد .والهدف من ذلك هو تنقيف الناس و توعيتهم وخلق ما بقي من آثار الوثنية بهذه المجتمعات ، حتى خصت المدن الكبرى في السودان الغربي بالعلماء والمدرسين من خارج بلاد السودان الغرب ، وقد ذكر لنا ابن بطوطة وهو مقيم بمالي أنه لجأ لطبيب مصري ليداويه من مرض ألم به هناك من جراء تناوله لأحد النباتات ، كما أنه ذكر في كثير من المرات حي الذي يسكنه البيض ،أي من هم غير أهل السودان (ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي، صفحة 372). وعند الحديث عن ملوك السودان فلا يخفى على أحد ما قام به منسى موسى من جهود في سبيل نقل العلماء والعلوم إلى بلاد السودان الغربي وكذا توطيد العلاقات بين بلاده وباقي بلاد الإسلام وخاصة بلاد الحجاز ومصر ،أثناء رحلته الشهيرة إلى الحج

كما اشتهر اسقيا محمد سلطان مالي (1493-1528 م) بتشجيعه للعلماء وإكثار العطاء لهم ، فعمرت بهم حواضر السودان الغربي كجني و غاو و تمبوكتو ، وهذا ما انعكس بالإيجاب على هذه البلاد وكان سببا في قيام نهضة ثقافية فيها خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر للميلاد . وقد عرف الأسقيا محمد كذلك برحلته إلى الحج والتي أخذ فيها جمع كبير من العلماء والعبيد والدواب ، وأنفق هو الآخر نفقات كبيرة في هذه الرحلة زادت بكثير عن نفقات منسى موسى التي أبهرت العلم آنذاك (زبادية عبد القادر، دبت، ص37). وقد اتصل بمحمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان قصد بلاد السودان الغربي قادما من بلاد توات فعين كمستشار للأسقيا وممثلا له في منطقة غاو ، حيث ألف له كتاب في الإدارة الإسلامية سماه " أجوبة وأسئلة أسكيا " بناء على طلب الملك ،كما أنه اجتمع بسطان كانو ، فكتب له رسالة في أمور السلطة ينصحه فيها بإتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما علمهم الشرع و قواعده (ابن مريم المليتي المديوني، 1908 ،ص130)،

ومن خلال ذلك نلمس حرص ملوك السودان الغربي على العمل بتعاليم الإسلام و إشاعة العدل بين الرعية عن طريق الإصلاحات التي باشرها في إعطاء صورة جديدة لمجتمع سوداني ، قائمة على تعاليم الدين الحنيف .  
وذلك بتنظيم الدولة وهذا ما أدى إلى القضاء على الكثير من الآثار الوثنية والعادات والتقاليد التي عاشتها المجتمعات الأفريقية ، وكانت في نفس الوقت إعلانا لتطور حضاري للمنطقة برمتها في جميع الميادين السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية و حين تخلى خلفاء الأسقيا محمد عن ما أقامه بدأت الدولة تضمحل و تسير من ضعف إلى ضعف (زبادية عبد القادر، صفحة 54).

### 2-3 - التطورات السياسية والتهاافت الاستعماري :

عرفت بلاد السودان الغربي العديد من الأحداث والتطورات على المستوى السياسي ، جعلت الأوضاع تتغير تدريجيا بداية من القرن الثالث عشر ميلادي ، السابع الهجري وإلى غاية القرن السادس عشر ميلادي ، العاشر الهجري حيث أثرت جملة الأحداث التي مرت بها على الواقع الاجتماعي والاقتصادي بشكل كبير . فقد انتقلت سلطة البلاد إلى العديد من الشعوب والسلالات انطلاقا من الماندينغو ( هواري رضوان، 2013، ص25 ) في عهد دولة مالي في بداية القرن الثالث عشر للميلاد حوالي 1225م ، إلى غاية منتصف القرن الخامس عشر حوالي 1455 م حيث عرف أمراء الماندينغو بلقب منسا وكان أشهرهم منسا موسى الذي سبق وأن أشرنا إليه وعن رحلته الشهيرة إلى الحج ، وكان من أهم ما عرفته بلاد السودان الغربي في عهدهم هو نبذ الصراعات والحروب القبلية التي كانت كثيرا ما تقوم بين قبائل المنطقة وذلك عن طريق عقد المصاهرات مع زعماء القبائل في إمبراطوريتهم وهذا ما جعلها تنقاد إليهم (CORNEVIN R, 1962,p250)، أما في المجال الاقتصادي فقد عرفت البلاد تنظيما اقتصاديا كبيرا من خلال تشجيع زراعة بعض المحاصيل كالقطن (CORNEVIN R, p. 251) ، كما قاموا بتنظيم الجباية على الواردات والصادرات بشكل أكثر إحكام على ما كان معمولا به في عهد مملكة غانة ، وهذا ما أغدق الأموال على مملكة مالي ، ومن جانب آخر أكثر أهمية هو استتباب الأمن ، وخاصة على طرق القوافل لأنها مصدر مهم من مصادر دخل الدولة، فقد تحكمت بشكل كبير في طرق القوافل الرئيسية و هذا ما انعكس بالإيجاب على البلاد برمتها .

تطورت الحياة بشكل كبير في بلاد السودان الغربي على عهد دولة مالي واتضح ذلك في الجوانب الحضارية بشكل عام فازدهر مدنها وحواضرها بشكل ملحوظ من خلال العدد والوافدين عليها كذلك وحتى طابع الأبنية التي تطورت هي الأخرى وخاصة في مدينة تمبوكتو (باري محمد فاضل علي ، و كريدية سعيد ابراهيم، 2007، ص99) ، وما اكتمل البناء فيها بالالتصاق إلا في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر للميلاد (السعدي عبد الرحمن، الصفحات ص21-22) ،

حيث وصل تعداد سكانها حوالي 100.000 نسمة ربعهم كان من العلماء الذين تخرجوا من مصر والحجاز (باري محمد فاضل علي ، و كريدية سعيد ابراهيم، 2007، ص99). وقد عرفت دولة مالي في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي رخاء اقتصاديا كبيرا حتى سمي هذا العصر بالعصر الذهبي لدولة مالي وخاصة تمبكتو ، التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية و العلمية على حد سواء، وكان من جملة العوامل المساعدة على ذلك توفر الأمن والنظام في المدينة بشكل خاص ، مما ساهم في تنشيط الحركة الاقتصادية بها و أتاها التجار من كل المناطق فازدادت قوتها سنة بعد أخرى .

لقد حاول خلفاء منسا موسى التوجه نحو المحيط الأطلسي (العمرى شهاب الدين بن فضل الله، 2001 ، ص121)، كما عملوا على الاتصال بالبرتغاليين والايطاليين وهذا ما زاد في أطماع هذه الدول في الحصول على موارد دولة مالي مع نهاية القرن السادس عشر الميلادي في إطار الحملة الاستعمارية الشرسة ، التي شنتها الدول الغربية تحت غطاء ما أسمته باستكشاف القارة الإفريقية .

دخلت دولة مالي في طور الضعف في منتصف القرن الخامس عشر ميلادي واستمرت الاضطرابات تعصف بها بسبب تنافس أفراد الأسرة الحاكمة ، وهذا ما قطع أوصالها لتتحول إلى مملكة صغيرة بين الممالك الحديثة الظهور (MONTEIL CH, 1968,p143).

مع حلول القرن السادس عشر أصبحت دولة سنغاي قوة سياسية في بلاد السودان الغربي، وهي من سيقود المنطقة لفترة لا تقل أهمية على ما عرفته دولة مالي .وقد عرفت دولة سنغاي أوج عظمتها في عهد الأسقيا الحاج محمد الكبير ورغم أن أسر الأسقيا لم تحكم سنغاي أكثر من قرن واحد ، إلا أنها استطاعت أن تمد حدود الدولة إلى أقصى اتساع لها بحيث لم تصله أي دولة قبلها ولا بعدها في تاريخ السودان الغربي .والذي يجب ذكره على أيام الأساقيا في دولة سنغاي ، هو ذلك التنظيم المنقطع النظير على جميع الأصعدة وخاصة على عهد الأسقيا محمد الكبير لأنه حرص على تقوية دولته داخليا ليستطيع الوقوف أمام خصومه من جهة ، ويكسب الرعية من جهة أخرى كما شهد عهده (1493-1528 م) ، أزهى فترات دولة سنغاي وذلك بإشاعة العدل بين مناطق البلاد وشعوبها وبذلك ضمت إلى البلاد عدة أراضي جديدة في الشمال ، وعلى سواحل الأطلسي وحتى بلاد الهوسا (فيج ج يدي، 1982، ص72). ومن هذا ما أدى إلى انتقال الكثير من العلماء إلى شرق مملكة سنغاي ، فأقاموا هناك يفقهون الناس في الدين وينشرون الثقافة الإسلامية ، فكانوا نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي ، كما كان للمشاريع التي أقامها أثر كبير في رخاء البلاد ، كحفر القنوات على شواطئ النيجر لزيادة الأراضي المزروعة وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدة ، مما جذب إليها الكثير من تجار طرابلس وفاس وتلمسان .

شهدت مملكة سنغاي عدة تحولات على جميع المستويات بعد تنازل الأسقيا محمد لابنه موسى على السلطة سنة 1528م ، فكانت بداية الانهيار بعد أن دب الصراع في البلاط بين الأشقاء على الحكم ، فانعكس ذلك على الأوضاع السياسية والاقتصادية بشكل عام .كل هذه الأحداث أدت بأمرء المقاطعات والقبائل إلى التمرد (الدالي الهادي المبروك، 1999 ،ص197)، واستمرت الأوضاع في سنغاي على حالها إلى غاية الملك إسحاق الثاني (1588-1591م) و الذي ستعرض فيه البلاد للعديد من الحملات من قبل أحمد المنصور السعدي لعدة اعتبارات كان أهمها :

- اعتبار بلاد السودان منفذا عسكريا و اقتصاديا للمغرب إلى الجنوب ، وهذا بعد الضغط الذي التحولات العسكرية والسياسية التي عرفتها المناطق الشمالية بعد سقوط بلاد الأندلس في يد النصارى الأسباب واعتداءاتهم على سواحل شمال إفريقيا تحت ما أسموه بحروب الاسترداد ، و ظهور العثمانيين على الحدود الشرقية للمغرب .كل ذلك جعل من المغرب جسرا ملائما بالنسبة للأوروبيين قصد العبور إلى غرب إفريقيا خاصة في ظل الأطماع المتنامية للبرتغاليين الذين شرعوا في بسط تواجدهم على السواحل الغربية الأطلسية جنوب المغرب (قدوري عبد الرحمن، 2012 ،ص49 )، فكان توجه السعديين نحو الجنوب هو إجراء وقائي لمنع تطويقهم من الجنوب .ومن العوامل الأخرى كان يريد التحكم في موارد وثروات بلاد السودان الغربي لنفسه وهذا ما ستترجمه الممارسات التي قام بها جيشه عند دخوله إلى هذه البلاد من خلال الضرائب التي فرضت على الأهالي والذي دعمت خزينة السعديين بأموال طائلة سنويا (اليفرني محمد الصغير، 1988 ،ص95).

إن المتتبع للتحولات التي عرفتها بلاد السودان الغربي خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر الهجري ، يتوصل إلى أنها أثرت على المستوى الديموغرافي للبلاد فقد أثرت بوضوح على عدد السكان بشكل ايجابي، حيث توافد عدد كبير من التجار والعلماء على بلاد السودان الغربي خاصة في عهد الأسقيا محمد والفترة القصيرة التي تلت حكمه فارتفع عدد السكان وكبرت المدن وتطور العمران ، وانتعشت الأنشطة الاقتصادية بها . ومن جهة أخرى كان لهذه التحولات أثرا سلبيا من خلال حدوث نزيف ديموغرافي منذ أواخر القرن السادس عشر ، نتيجة تطاحن أفراد الأسرة الحاكمة وكثرة الحروب التي قامت بين الأمراء وحكام الأقاليم ، كما كان للحملات السعدية على بلاد السودان الغربي أثر كبير كذلك من خلا عدد الضحايا الذين سقطوا فيها من أهل السودان نتيجة التفوق المادي الممثل في الأسلحة التي استعملها المغاربة ضد السودانيين الذين ظلوا يحاربون بأسلحة بدائية ، وهذا ما مكن المغاربة من التوغل في بلاد السودان الغربي والسيطرة على أهم حواضرها لحين من الدهر .فأصبحت بعض المدن خاوية على عروشها كنتغازا بعد أن خرج منها سكانها اثر دخول الجيش المغربي إليها سنة 1586 م ، ومدن أخرى أبيد أهلها وأسر علمائها كتمبوكتو سنة 1591م من قبل الجيش السعدي .

لقد كان لهذه الأحداث عدة نتائج كما ذكرنا ولعل أهمها هو تراجع الوزن الحضاري لبلاد السودان الغربي وخاصة التجارة التي عرفت تراجع كبير نتيجة انعدام عامل الأمن وكذا تحول الطرق التجارية نحو السواحل الأطلسية .

لقد وجد أهل السودان الغربي أنفسهم مجبرين على العيش تحت الحكم المغربي ،الذي كانت أحكامه العسكرية قاسية من جهة ولكنه كان مجبرا على ترك بعض العراف على ما هي عليه ، لأنه لم يكن بالإمكان تخليصه منها دفعة واحدة ، وكان للوجود المغربي الذي تمركز في الحواضر الكبرى لبلاد السودان الغربي أثر سلبي حيث انتشرت المجاعات والأوبئة التي قضت على خلق كبير ، وسرعان ما اختلط العنصر المغربي من الجند الذي كان متواجد بهذه البلاد بالعنصر الأصلي أما العادات فقد دخلت عليها العادات المغربية في اللباس والاحتفالات الدينية وغيرها من المظاهر التي طغى عليها الطابع المغربي وشكل العامة من المغاربة ،وأهل البلاد الأصليين تلت الطبقة الاجتماعية في السودان الغربي وكان البقية من العبيد و الأقبان من السودانيين الذين مثلوا الخدم عند أغنياء المغاربة ( عيلةسلطان محمد، 1989 ،ص195).

أصبح الاقتصاد المغربي اقتصادا موجها ومسخرًا لحاجيات المغرب ،حيث تطورت الزراعة والصناعات جراء تركيز جالية مغربية كبيرة ببلاد السودان الغربي حتى أنها عرفت أنماط ومحاصيل زراعية جديدة ، جراء ما جاء به الفلاحون من أهل الأندلس واليهود من تقنيات فلاحية لم يعتدها أهل هذه البلاد .

لقد ساهمت التحولات السياسية التي عرفتها منطقة السودان الغربي سواء داخليا أو خارجيا في التأثير بشكل كبير على الخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة، فكان فيها الايجابي والسلبى ولكن المتغيرات الدولية التي أحاطت بالمنطقة في أواخر القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري جعل المنطقة تنهوى حضارتها بسبب من ادعوا الحضارة آنذاك .

### 3- العوامل الاقتصادية :

#### 3-1 تأثير التجار :

لعبت التجارة والتجار دورا مهما في بلاد السودان الغربي لمالها من تأثير مباشر على البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد ساهمت التجارة ومنذ القدم في ازدهار العديد من الحضارات ، وهذا ما حققته التجارة في بلاد السودان بشكل عام والسودان الغربي بشكل خاص وهذا منذ القدم (جواد علي، 1969 ،ص285).فكان لاستقرار التجار العرب المسلمين في هذه المناطق واختلاطهم مع الأفارقة دور في تعليم سكانها التجارة وفق الشريعة الإسلامية ،

وربط المنطقة بالعالم الإسلامي بشكل كبير فتوافد الكثير من التجار العراقيين إلى سجماسة كمقدمة للتوغل في بلاد السودان الغربي ونقلوا بذلك إلى سكان البلاد الأخلاق الحسنة وهذا ما ذكره ابن حوقل في قوله: " أنهم حسني الأعمال ولهم كمال في الأخلاق ، وصدق في معاملاتهم ... " (ابن حوقل أبي القاسم النصيبي، 1992 ،ص99)، ومما ذكرته المصادر كذلك في هذا الشأن هو أن العديد من التجار العرب المستقرين في أودغست اشتغلوا كوكلاء تجاريين بين شمال الصحراء وجنوبها، كما أنهم استخدموا بعض الأساليب التجارية لم تكن معروفة في بلاد السودان الغربي، كاستخدامهم للصكوك التجارية (ابن حوقل أبي القاسم النصيبي، صفحة 56) وهذا دليل واضح على مدى التأثير الذي نقله التجار العرب إلى هذه المنطقة، كما أن المصادر ذكرت مدى الاحترام الذي لقيه التجار من قبل حكام وملوك بلاد السودان الغربي. ومع حلول القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي أصبحت فوائد التجارة في هذه المناطق تعم جميع الفئات، بعدما كانت مستغلة من قبل الملوك فيما مضى (قداح نعيم، 1960، ص101). ومع بداية حكم الأسفيين في دولة سنغاي في القرن السادس عشر ميلادي العاشر الهجري كان التجار في هذه البلاد منقسمين لقسمين: أما القسم الأول فكان يتمتع بثراء، وجاء كبير مما جعله يرقى لمصاف الملوك والحكام، وكان غالبيتهم من التجار العرب والمغاربة، حيث لقيت هذه الفئة عناية فائقة من طرف الأساقي (كعت محمود، صفحة 57) وكان لهذه الفئة دور كبير في تطور المجتمع السوداني على جميع الأصعدة كالتعليم وتوضيح الشريعة الإسلامية، والاستشارة في الحكم والقضاء، قيادتهم للصفقات التجارية المعقدة حتى أن بعضهم كان يطلب منه الفتوى. (الشيخلي ابراهيم صباح، 1984، ص42) لقد عملت هذه الفئة من التجار الوافدين على بلاد السودان الغربي أو بالأحرى الأجانب، إلى ظهور العديد من المنتجات والمواد التي يوتى بها من الخارج ولم تكن موجودة بهذه البلاد مما أدى إلى رواجها وتضاعف أثمانها بالمقابل وهو الشيء الذي أدى إلى حصول نقلة كبيرة في التاريخ الحضاري للمنطقة بشكل عام، ومن هذه البضائع نذكر تجارة الكتب على سبيل المثال لا الحصر، والتي كان لها دور كبير كذلك في ازدهار العديد من حواضر بلاد السودان كمدينتي تمبكتو وجني اللتين أصبحتا مدينتي العلم والعلماء. و نتيجة للنشاط الاقتصادي والثقافي شبعت عدة مدن في السودان الغربي بميلانو ونورمبرغ نتيجة ثرائها و حركيتها (Davidson Basil, 1970,p90) عرفت بلاد السودان الغربي إلى جانب ذلك العديد من البيوع والمعاملات المستوحاة من الشريعة الإسلامية مثل القراض في التجارة والوكلاء التجاريين، حيث بدأت هذه المعاملات تشكل جزء من العلاقات التجارية الموجودة بين التجار المحليين والأجانب (الدالي الهادي المبروك، صفحة 269)، و قد استحدثت مهن أخرى ترتبط بالتجارة وهي الدليل أو كما ذكره ابن بطوطة التكشيف قبل دخوله إلى مدينة ولاته وفي الأغلب كان من أهل مسوفة المغربية وذلك لكثرة تنقلهم ومعرفتهم بدروب الصحراء التي تربط بين الشمال والجنوب (ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي، صفحة 368) .

لقد نشأت فئة أخرى من التجار إلى جانب التجار الأجانب هي فئة التجار المحليين والذين كانوا أقل ثراء من التجار الأجانب نتيجة قلة أرباحهم ومحدودية سلعهم ولم ترتقي هذه الفئة إلى تقلد مناصب عليا إلا أن الجدير بالذكر أنهم أصبحوا أكثر اقتداء بالتجار في المشرق العربي وفي بلاد المغرب على حد سواء، وذلك من خلال توجيههم إلى التخصص في المجال التجاري، كالحبوب واللحوم وما شابه ذلك. فقد ساهم التجار في بلاد السودان الغربي في التأثير على المجتمع والاقتصاد السوداني بما يلي:

- ✓ بتنشيط التجارة الداخلية
- ✓ تغذية الجبايات الحكومية وما ينتج عنه من ثراء البلاد.
- ✓ المساهمة في توفير الشغل.
- ✓ تغيير النمط الاستهلاكي في الغذاء واللباس خاصة عند الموسرين من الرعية (زبادية عبد القادر، صفحة 218).

لقد امتد تأثير التجار بشكل كبير في معاملات الأسواق حتى أنهم أدخلوا الكثير من الأسماء العربية على المقاييس والموازين فاستخدموها وفق ما كان متعاملا به في باقي البلاد الإسلامية كالذراع والشبر، والمد، والصاع وتعاملوا كذلك بالدينار والدرهم والمتقال والأوقية المصنوعة من مختلف المواد، كما تم تعيين مراقبين لهذه الموازين والمقاييس كما كان الشأن في باقي البلاد الإسلامية (سيسيكو سينيكي مودي، 1988، ص206). لعب التجار دروا بارزا ومهما في إخراج بلاد السودان الغربي من الوثنية والبدائية إلى الحضارة ومجارات باقي الأقطار الإسلامية في الكثير من المظاهر الحضارية.

### 3-2- دور الرقيق :

ازدهرت أسواق النخاسة خلال القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي حيث تزايد عدد العبيد من مختلف الأعمار وكانت أثمانهم منخفضة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، باعتبارهم وسيلة للمبادلات كالودع والملح والذهب فكان انخفاض أثمانهم سببا في إقبال التجار على أخذ الكثير منهم إلى بلدانهم، مما يدر عليهم الكثير من الأموال سواء في أسواق بلاد المغرب أو مصر وحتى إلى التجار الأوروبيين الذين ينقلونهم إلى أسواق أوروبا. لقد ساهم الرقيق بنوع من التأثير في المجتمع السوداني، خاصة بعد أن أخذوا عادات وطبائع المناطق التي أخذوا إليها والتي كانت إسلامية في الغالب، ولكونهم اندمجوا في تلك المجتمعات التي عاشوا فيها فقد نقلوا إلى أهلهم تفاصيل ما عاشوه بعد تحررهم وعتقهم لوجه الله تعالى، أو تكفيرا عن الأخطاء التي يتوجب فيها شرعا عتق رقبة (سحنون ابن سعيد، 1323 هـ، ص22) ورجوعهم إلى بلدانهم، فزرعوا بذلك القيم والعادات التي لمسوها في المناطق التي كانوا فيها قبل عتقهم. كما لعب التواجد الكبير للعبيد في قصور الحكام والملوك دورا كبيرا في نقل عادات سادتهم في مختلف المناسبات (السائح، 1975، ص167)،

وحتى فيما يتعلق بالحروب نقل العبيد المعتوقون إلى بلدانهم كيفية معاملة الأبرياء كما استخدموا أساليب تعلموها أثناء مشاركتهم في جيوش المسلمين ، وقد عملوا على نقل أوضاع المسلمين الاجتماعية من خلال تصرفاتهم اتجاه الرعية ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الشأن هو جلوس ساكورة (القلقشندي أحمد بن علي، صفحة 294) على حكم مالي والتزامه بعناية شؤون رعيته وفق الشريعة الإسلامية حيث ذهب في رحلة الحج سنة 1300/700م وخلال ذلك زار مصر ، وقد حكم دولة مالي صندكي (القلقشندي أحمد بن علي، صفحة 297) الذي هو في الأصل من الرقيق .وقد طبق هذا الأخير كل ما تعلمه خلال فترة استراقه في حكمه ، والأمثلة كثيرة إذا تحدثنا عن الرقيق ودورهم في قيام الدول الإسلامية فلا يخفى (العمري ابن فضل الله شهاب الدين، 1988،ص72) على أي دارس الدور الذي لعبه المماليك(ابن منظور محمد بن مكرم، 1997 ،ص493) في إرساء دعائم الملك وإقامة دولة قوية لا تزال العديد من معالمها قائمة إلى يومنا هذا خاصة في مصر عاصمة ملكهم.

كما ساهم الرقيق بشكل كبير في تطوير و إنعاش الجانب الاقتصادي في بلاد السودان الغربي وخاصة في الزراعة المنتشرة على ضفاف أنهارها (المغربي ابن سعيد، 1970،ص24) ، وقد ذكر كعت طريقة تقسيم الرقيق في الحقول أثناء موسم حصاد الرز في دولة مالي(كعت محمود، صفحة 94) ،كما قام الأسكيا الحاج محمد قرية زراعية كبيرة يعمل فيها الرقيق (سيسيكو سينيكي مودي، صفحة 207) .

لقد تعددت الأعمال التي قام بها الرقيق في بلاد السودان الغربي كاستخراج التبر وسبك النحاس واستخراج الملح وغيرها من الأعمال التي أشارت إليها المصادر (الشنقيطي أحمد بن الأمين ، 1989 ،ص494)، وحتى الإماء كان لهن الدور الكبير في اقتصاد هذه البلاد فقد شاركن في الحياة العامة وقد ذكرت المصادر ذلك كاشتهار إماء أودغست بصناعة الحلويات وبيع بعضهن في الأسواق (البكري أبو عبيد الله، ص158).

### 3-3- دور أصحاب الحرف والصنائع :

إن بساطة المجتمعات الإفريقية جعلت معرفتها بالحرف والصنائع قليلة، ولكن نسجها وربطها لعلاقات وطيدة مع العديد من أقطار العالم وخاصة الإسلامي منها جعلتها تنقل ثقافات هذه الشعوب إليها، وبحكم الاختلاط الذي عرفته بلاد السودان الغربي وعملية التلاقح الذي حصل مع باقي الشعوب .دخلت على هذه البلاد العديد من الصنائع والحرف فلما كانت توجد فيها قبل القرن الثالث عشر ميلادي /السابع الهجري ، فظهرت الحياكة والصناعة الخياطة ودباغة الجلود وتصنيعها كملابس ، وكان من بين الصناعات التي ازدهرت صناعة دبغ الجلود والتي اعتمدت بدرجة كبيرة على الصباغة المجلوبة من المغرب ، ومن غدامس حيث نشطت الصباغة في العهد المغربي في السودان الغربي ، وحتى أواخر القرن العاشر الهجري /السادس عشر ميلادي ،وبهذا كانت الجلود المصبوغة هي أكثر ما يلبسه أهل السودان الغربي في فصل الشتاء (الغربي محمد، 1982 ،ص500).

وبالرغم من وجود العديد من الصناعات الحديدية والنحاسية عند أهل هذه البلاد إلا أنها لم تستطع الاستغناء على الصناعات التي كانت تجلب من المغرب خاصة بحكم أن بلاد السودان الغربي أصبحت تحت حكم المغاربة منذ عهد المنصور كما سبق وأن أشرنا . (الغربي محمد، صفحة 491) .

عرفت الزراعة كذلك قفزة كبيرة من خلال الخبرة الأندلسية التي جاءت مع الجيوش المغربية وأصبحت المزارع السودانية شبيهة بالبساتين الأندلسية ، من خلال الاستغلال الأمثل للتربة والمساحات الزراعية ، خاصة على سفوح الجبال بإنشاء المساطب والقنوات ، وعلموا أهل البادية أشياء جديدة لم يعهد وها كما أن أهل الأندلس الذين وفدوا مع المغاربة كانوا على دراية بالفيضانات وبخواص الطمي حيث عملوا على المراقبة المستمرة لمنسوب النهر وكذا رصد أوقات الفيضانات مما جعلهم يبنون محطات لقياس منسوب مياه النهر ، وهذا ما أشار إليه السعدي (السعدي عبد الرحمن، الصفحات 278-292) فكثرت الصنائع وعمت الخيرات في البلاد (المقري أحمد، صفحة 764). ونلمس مدى التقنيات التي أدخلت من طرف المغاربة في مجال الري كشق القنوات وتحويل روافد نهر النيجر (رزوق محمد، 1987، ص111) وزراعة الأصناف التي لم تكن موجودة في بلاد السودان، وأدخلوا البيطرة قصد الاعتناء بالثروة الحيوانية (Dupuis-yakouba, 1921,p183-185).

لقد ساهم أصحاب الحرف والصنائع في تنمية وتطوير الاقتصاد السوداني والذي كان معظمهم وافد من المغرب لأنه كان بوابة السودان الغربي من الشمال ، فظهرت صناعات تحويلية وكمالية على حد سواء لم تكن معروفة في بلاد السودان الغربي ، وكان للصناع المغاربة المهرة الذين وفدوا على بلاد السودان الغربي أثناء الحملة السعدية أو قبلها دور في خلق صناعات جديدة وتطوير البدائية منها ، كما نقلوا البذور والمزروعات الجديدة لهذه البلاد كالعديد من أنواع الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر ، وتنظيم الزراعة وفق ما يعرف بالدورة الزراعية باختيار التربة الصالحة لكل نوع من النباتات (رزوق محمد، صفحة 110) .

تغيرت البنية الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي خلال القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري نتيجة العوامل التي اشرنا إليها فكان منها ، ما أفاد البلاد وجعلها ترتقي في سلم الحضارة وتضاهي بذلك باقي المناطق في العالم الإسلامي ، أو العالم الغربي من خلال حجم المبادلات التجارية في مختلف السلع التي كانت تصدر وتستورد من هذه المناطق ، أما الجانب السلبي في هذا التحول جعل البلاد محط أنظار العديد من القوى العالمية وخاصة الأوروبية التي كانت في هذه الفترة تعيش فترة الانقلاب الصناعي ، وما صاحبها من ظهور للفكر الاستعماري الحديث والذي ستكون القارة الإفريقية أكبر ضحاياه مستخدمة قناع الكشوف الجغرافية و التجارة للتوغل في القارة بداية من السواحل الأطلسية الغربية .

**الخاتمة :**

عرفت بلاد السودان الغربي العديد من التحولات الاقتصادية و الاجتماعية بداية من القرن السابع الهجري /الثالث عشر ميلادي وإلى غاية نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي وهي إعلان عن نهاية العصر الوسيط ودخول البلاد الإسلامية برمتها في تغير جذري كانت له عدة تبعات على العالم الإسلامي في ظل تغير موازين القوى العالمية . وأهم هذه التحولات التي مست بلاد السودان الغربي خلال هذه الفترة :

- ✓ توغل الإسلام في المجتمعات الإفريقية وتأثرها به بشكل كبير .
- ✓ ظهور الكيان السوسيو اقتصادي لبلاد السودان الغربي في هذه الفترة .
- ✓ انعكاس هذا التطور على الجانب الثقافي حيث تطورت البلاد وتجلت ذلك في الحركة العلمية التي مست البلاد وظهور العديد من العلماء والمؤلفات .
- ✓ التطور الاقتصادي لبلاد السودان الغربي كان نقمة عليها وجعلها مطمعا للأجانب .

## قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ابن الاحمر اسماعيل بن يوسف . (1972)، النفحة النسرينية واللمحة المرينية، تحقيق: عدنان م، المترجمون، مطبعة الشام، دمشق، سوريا.
- (2) ابن الخطيب لسان الدين، (1974)، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج2، الخانجي، القاهرة، مصر.
- (3) ابن الوردي زين الدين عمر بن المظفر، (1970)، تنمة المختصر في أخبار البشر، ج2، دار المعرفة للطباعة، بيروت، لبنان.
- (4) ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي، (2009)، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج2، دار الفكر، بيروت.
- (5) ابن ثعري بردي، (د.ت)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج14، وزارة الثقافة، القاهرة، مصر.
- (6) ابن حزم أبو مُحَمَّد عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ، (د.ت)، جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- (7) ابن حوقل أبي القاسم النصيبي، (1992)، صورة الأرض دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان .
- (8) ابن خلدون عبد الرحمن، (1976)، العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار العلم، بيروت، لبنان.
- (9) ابن سعيد المغربي، (1970)، كتاب الجغرافيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- (10) ابن سعيد، سحنون. (1323 هـ)، المدونة الكبرى، تحقيق: سيد حماد الفيومي وآخرون، ج1، مطبعة السعادة، القاهرة.
- (11) ابن كثير إسماعيل بن عمر، (1977) البداية والنهاية، ج14، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- (12) ابن مريم المليتي المديوني، (1908)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، مراجعة: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر.
- (13) ابن منظور محمد بن مكرم، (1997)، لسان العرب (ج10)، دار صادر، بيروت، لبنان.

- 14 أبو عبيد الله، البكري، (ص158). المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر.
- 15 باري محمد فاضل علي، و كريدية سعيد ابراهيم، (2007)، المسلمون في غرب افريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 16 بدوي عبده، (1970)، مع حركة الإسلام في افريقيا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر.
- 17 التكروري بن عرفة، (1314 هـ)، العرف المشهور في حجاج بلاد التكروري، الخانجي، القاهرة، مصر.
- 18 جمال زكرياء قاسم، (1975، ص155)، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر.
- 19 جواد علي، (1969)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- 20 الحسن السائح، (1975)، الحضارة المغربية عبر التاريخ، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
- 21 حسن الوزان، (1983)، وصف افريقيا، ج2، دار الغرب، بيروت، لبنان.
- 22 خيري عيسى محمود، (د.ت)، العلاقات العربية الإفريقية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، مصر.
- 23 الدالي الهادي المبروك، (1999)، التاريخ السياسي وإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر.
- 24 الذهبي محمد بن أحمد، (1987)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج2، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 25 رضوان هواري. (2013)، بيوتات العلماء في السودان الغربي من خلال كتاب نيل الإبتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، الجزائر.
- 26 زبادية عبد القادر (د.ت)، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ش و ن ت، الجزائر.
- 27 الزركلي خير الدين، (1969)، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج2، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

- (28) زكي عبدالرحمن، (1961)، تاريخ الدولة الإسلامية السودانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، مصر.
- (29) سحنون ابن سعيد، (1323 هـ)، المدونة الكبرى، تحقيق: سيد حماد الفيومي وآخرون، ج1، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر.
- (30) السعدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، (1898)، تاريخ السودان، بردين انجي، باريس، فرنسا.
- (31) سورة الحجرات، (الآية 13).
- (32) سينيكي مودي سيسيكو. (1988، ص206) الصنغي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام، (مج4)، الليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان.
- (33) الشنقيطي أحمد بن الأمين، (1989)، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، تحقيق: فؤاد السيد، مطبعة المدني، القاهرة، مصر.
- (34) الشخلي صباح ابراهيم، (1984)، النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، جامعة الدول العربية اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، العراق.
- (35) عارف محمد شوكت، (1996)، دولة كانم الإسلامية، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية من القرن 5-8هـ/11-14 م ن رسالة ماجستير جامعة الموصل، العراق.
- (36) عبد القادر زبادية. (د.ت)، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، (د.ت)، ش و ن ت، الجزائر.
- (37) عيلة سلطان محمد، (1989)، العناصر المغربية في السودان الغربي، رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر.
- (38) عطاء الله الجمل شوقي. عبد الرزاق ابراهيم عبد الله. (1996)، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، مصر.
- (39) علي جواد، (1969)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- (40) العمري شهاب الدين بن فضل الله، (2001)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار مج 4، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.

- (41) الغربي محمد، (1982)، بداية الحكم المغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت.
- (42) فوزية يونس فتاح، (1994)، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق.
- (43) فيج ج يدي، (1982)، تاريخ غرب أفريقيا، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- (44) قدام نعيم، (د.ت)، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا، ش.و.ن.إ، الجزائر.
- (45) قدام نعيم، (1960)، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، (مراجعة عمر الحكيم، المترجمون)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا.
- (46) قدوري عبد الرحمن، (2012)، الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرنين 9 و10هـ/15 و16 م رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، الجزائر.
- (47) القلقشندي أحمد بن علي، (د.ت)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (48) كعت محمود، (1913)، تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، بردين، باريس.
- (49) مادوهوبانيكارك، (1995)، الوثنية والإسلام، تر: أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- (50) محمد الغربي، (1982)، بداية الحكم المغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت.
- (51) محمد رزوق، (1987)، العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر، ع 31، مجلة المؤرخ العربي، القاهرة، مصر.
- (52) محمد شوكت عارف، (1996)، دولة كانم الإسلامية، دراسة في الجوانب السياسية والإقتصادية من القرن 5-8هـ/11-14 م ن رسالة ماجستير، جامعة الموصل، العراق.
- (53) المقرئ أحمد. (1986)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق احسان عباس، ج5، دار صادر، بيروت، لبنان.
- (54) المقرئ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، (1958)، السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر.

- (55) المقريري تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، (د.ت)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار  
ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر.
- (56) اليفرني محمد الصغير، (1988)، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مكتبة الطالب ،  
الرباط، المغرب.
- (57) Paris,France.، T1 , 2v•CORNEVIN R,(1962), Histoire del' Afrique
- (58) Davidson Basil, (1970),The Lost Cities of Africa, Little,Brown,  
Boston,USA.
- (59) Dupuis-yakouba, (1921), Industries et principales professions des Habitants  
de la région de Tombouctou,paris ,France.
- (60) MONTEIL CH, (1968). Les empires de MALI, paris, France.
- (61) Trimmingham Spencer, (1976 , p107). AHistory of Islam in west Africa  
.oxford university, London, England